چون بايبر

النعمة المستقبلية

القوة المطهرة للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية

Originally published in English under the title:

Future Grace by **John Piper**

Copyright © 1995 by Desiring God Foundation
Published by Multnomah Books
an imprint of The Crown Publishing Group
a division of Random House, Inc.
12265 Oracle Boulevard, Suite 200
Colorado Springs, Colorado 80921 USA
International rights contracted through:
GLINT, P.O. Box 4060, Ontario, California 91761-1003 USA
This translation is published by arrangement with
Multnomah Books, an imprint of The Crown Publishing Group,
a division of Random House, Inc.
Arabic edition © 2013 Eagles Publications
#4 Mohammed Hassan Al-Gamal St., off of Abbas El-Akkad St.
Nasr City, Cairo, Egypt

النعمة المستقبلية

© الناشر: مطبوعات إيجلز
ص . ب ٨٢١٦ مدينة نصر
١١٣٧١ القاهرة – مصر
طبعة أولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٨٢١
الترقيم الدولي: 978-977-387-081-2
الترجمة: القس/ يوسف سمير
التحرير والمراجعة، والإعداد الفني: إيجلز جروب
طبع في مصر: مطابع آلوكس– المنطقة الحرة
جميع حقوق الطبع في اللغة العربية محفوظة للناشر وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أو طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال بدون إذًا مسبق من الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

إهداء

إلى روث يولاليا بايير

١٩١٨– ١٩٧٤

المحتويات

تقديم ٩

المقدمة رقم (١)

لماذا كُتب هذا الكتاب؟ وكيف؟ ١٣

المقدمة رقم (٢)

إلى اللاهوتيين ٢٥

الجزء الأول: عدو الإيمان في النعمة المستقبلية

الفصل الأول

فلسفة المديون: هل ينبغي أن نحاول تسديد الدين لله؟ ٣٥

الفصل الثاني

عندما لا يعمل الامتنان بالشكل الصحيح ٤٥

تطبيقات القوة المطهرة

الفصل الثالث

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة القلق ٥٥

الجزء الثاني: النعمة المجانية والمستقبلية

الفصل الرابع

الحياة المتبقية هي النعمة المستقبلية ٦٧

الفصل الخامس

أكثر أعمال الله تحررًا ٧٧

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل السادس
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الكبرياء ٨٧

الجزء الثالث: المكانة الجوهرية للنعمة الماضية
الفصل السابع
النظر إلى الماضي من أجل المستقبل ١٠١
الفصل الثامن
منطق السماء المتين ١١١
الفصل التاسع
أربعة أعمدة لوعد ثمين ١١٩

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل العاشر
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مقابل الخجل في غير محله ١٢٩

الجزء الرابع: نافذة على أعمال الإيمان
الفصل الحادي عشر
علاقة حب مع شريعة الله ١٤١
الفصل الثاني عشر
أضع شريعتي في داخلهم ١٥٣

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل الثالث عشر
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة عدم الصبر ١٦٥

الجزء الخامس: طبيعة الإنسان في النعمة المستقبلية
الفصل الرابع عشر
ما يحفظ مجد سيادة نعمة الله ١٧٩

الفصل الخامس عشر
تذوق الجمال الروحي ١٩١
الفصل السادس عشر
الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح ٢٠٣
تطبيقات القوة المطهرة
الفصل السابع عشر
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الطمع ٢١١
الجزء السادس: النعمة المستقبلية المشروطة غير المستحقة
الفصل الثامن عشر
كيف نثق في وعود مشروطة ٢٢٣
الفصل التاسع عشر
كم شرطًا هناك؟ ٢٣١
الفصل العشرون
ماذا يستطيع الإيمان وحده أن يفعل ٢٤١
تطبيقات القوة المطهرة
الفصل الحادي والعشرون
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة المرارة..... ٢٥١
الجزء السابع: قوة التقديس في الإيمان بالنعمة المستقبلية
الفصل الثاني والعشرون
صناعة الحب في مصنع الرغبات ٢٦٣
الفصل الثالث والعشرون
محبة الخدمة أكثر من الحياة ٢٧٥

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل الرابع والعشرون
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الاكتئاب ٢٨٧

الجزء الثامن: الجهاد ضد عدم الإيمان بالنعمة المستقبلية
الفصل الخامس والعشرون
الصراع سهل كسهولة إفلات حبة البندق من اليد ٢٩٩
الفصل السادس والعشرون
الخطية أسوأ من الشيطان ٣٠٩

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل السابع والعشرون
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الشهوة ٣١٧

الجزء التاسع: أبدية النعمة المستقبلية
الفصل الثامن والعشرون
النعمة المستقبلية للألم ٣٢٩
الفصل التاسع والعشرون
النعمة المستقبلية للموت ٣٤١
الفصل الثلاثون
ميلاد جديد للخليقة ٣٥٧

الجزء العاشر: الاشتياق إلى الله والحياة بالإيمان
الفصل الحادي والثلاثون
ما أدين به إلى «چوناثان إدواردز» ٣٧٣

الحواشي ٣٨٧

تقديم

أهدي هذا الكتاب إلى والدتي التي قُتلت في حادث أتوبيس عام ١٩٧٤. كنت آنذاك قد بلغت الثامنة والعشرين من عمري. وخلال السنوات العشرة الأخيرة من حياتها كانت تراسلني بمعدل مرة أسبوعيًا، في البداية في إلينوي خلال دراستي في الجامعة، ثم في كاليفورنيا خلال دراستي في كلية اللاهوت، ثم في ألمانيا خلال دراستي العليا، ثم في مينيسوتا حيث بدأت خدمتي في التدريس. كان حبها لا يتوقف. وكان من النادر أن ترسل خطابًا دون اقتباس من الكتاب المقدس. كانت قد شبعتني بآيات الكتاب كصبي، وقامت بنفس المهمة معي وأنا في طور الرجولة. ومن بين كل النصوص الكتابية التي قامت باقتباسها، تكرر أحدها كثيرًا. وأظن أنه النص المفضل لديها. أو على الأقل كان هذا النص هو الذي رأت أنني في حاجة دائمة له. هذا النص هو أمثال ٣: ٥، ٦:

«توكل على الرب بكل قلبك،
وعلى فهمك لا تعتمد.
في كل طرقك اعرفه، وهو يُقوِّم سبلك»

وعلى مر السنوات رأيت أن هذا النص إنما هو دعوة للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية. الدعوة إلى الحياة بالإيمان موجودة في عبارة: «توكل على الرب بكل قلبك». أمّا الإشارة إلى النعمة المستقبلية فموجودة في عبارة: «هو يُقوِّم سبلك». كانت أمي تنصحني شهرًا بعد شهر بأن أحيا بالإيمان في النعمة المستقبلية. لقد كانت تدعوني للثقة في الرب، وبيَّنت لي أن أساس ثقتي هو ما وعد الله بأن يفعله لي في المستقبل: "يا بني، سوف يُقوِّم الرب سبلك. ثق به! ثق به!" هذا الكتاب هو محاولة مني للاحتفاء بهذا الإرث من النصائح الذي تركته لي والدتي.

لقد علمتني أن أعيش حياتي ما بين شطرتي ترنيمة: النعمة العجيبة Amazing Grace. تقول الشطرة الأولى: "هذه النعمة حفظتني إلى الآن". وتقول الشطرة الثانية

"هذه النعمة تقودني إلى حيث بيتي الأبدي". وقبل أن أستطيع شرح تلك العبارتين تعلمت أن الإيمان بالشطرة الأولى يقوي الإيمان بالشطرة الثانية؛ وأن الإيمان بمحتوى الشطرة الثانية يمكننا من إطاعة يسوع إلى المنتهى. ذلك ما يدور حوله هذا الكتاب.

الكتاب أيضًا هو برهان على النعمة التي انسكبت عليّ من خلال خدام وشيوخ وشعب كنيسة بيت لحم المعمدانية في مينيابوليس. لمدة خمسة عشر عامًا أجزلت لي هذه الكنيسة المحبة والاهتمام واللطف والإلهام. فهم لم يبخلوا عليّ بأوقات الخلوة من أجل التأمل والصلاة والكتابة. وقد قاموا بتنقيح أفكاري بينما كنت أقدِّم لهم هذه المادة في أمسيات الأربعاء خلال العام الدراسي ١٩٩٤– ١٩٩٥. فأنا أحبهم وأفرح بمتعة الحياة معًا بالإيمان في النعمة المستقبلية.

لقد حمل «چون بلوم»، مساعدي ومدير خدمة «الاشتياق إلى الله Desiring God»، عني عبئًا ثقيلاً، وأراح ذهني من أعباء ثقل تفاصيل لانهائية. ولكن أكثر ما أقدره له هو حماسته للحق الذي نخدمه معًا.. هذا الحق هو أن الله يتمجد أكثر فيما بيننا عندما يكون هو مصدر اكتفاءنا.

كذلك كانت رؤية «دانيال فولر» عن الحياة المسيحية كحياة «طاعة للإيمان» بمثابة الحديقة التي نمت فيها بذار أفكاري وتأملاتي. فقد تركت ثلاثة عقود من الحوار حول موضوع هذا الكتاب أثرها العميق في نفسي. وإذا حاولت إظهار ذلك من خلال الحواشي، فلن تجد صفحة بلا حواشي. وقد مَثَّل كتابه العظيم «وحدة الكتاب المقدس» (The Unity of the Bible -Zondervan, 1992) الخلفية التفسيرية لغالبية ما أكتبه.

كان «توم شراينر»، أستاذ العهد الجديد في كلية لاهوت بيت إيل، شريكًا فوق العادة في هذا المشروع. فهو لم يساعدني فقط في تدريس المادة، لكنه قام بقراءتها كلها وأنقذني من الكثير من الأخطاء من خلال نظرته التفسيرية المدققة.

كما كانت «كارول شتينباك» مرة أخرى ذات عون عظيم لي (أظن أننا اشتركنا معًا في خمسة كتب حتى الآن)، تحملت طواعية بمهمة أن تجعل الكتاب أكثر يسرًا في دراسته من خلال فهرس الموضوعات. وأثناء قيامها بذلك التقطت عيناها أخطائي في الكتابة في الوقت المناسب.

لقد عمل «ستيڤ هاليداي» المحرر اللغوي والمحامي والمشجع والصديق على إخراج الكتاب في صورة أفضل. وأدين له بالكثير في مقابل عشر سنوات من الشراكة. لقد أعطاه الله موهبة الفهم، فهو عندما يقرأ يلتقط على الفور ما أريد قوله.

وأخيرًا، خلال قرابة السبعة والعشرين عامًا وقفت «نويل» بجانبي في سني الحياة

الزوجية المليئة بالتحديات، وأنا أعتمد عليها أكثر من أي شخص آخر. وربما أستطيع توجيه شكري لها من خلال السطور القادمة التي كتبتها بمناسبة عيد الأم في عام ١٩٩٥:

اعتدت أن أحلم بتقدمي في الأيام
وأسند رأسي طويلاً على قلبك الكبير
لأحتضنه في صدري
كما تحتضن أشجار الغابة الكوخ الصغير
والآن بعد مرور السنين
وصراع الأيام قد أثخنني بالجراح
لازالت أفكاري تعود إلى الحلم القديم
حيث يدي فوق يدك ورأسي في حضنك قد استراح

المقدمة رقم (١)

إن الله يتمجد أكثر فينا
عندما يكون هو مصدر اكتفائنا وشبعنا.

إننا نمجِّد الله أكثر
عندما ننال منه نعمة أكثر.
فإذا امتلكت إيمانًا كبيرًا، بحيث أصارع مع الله متشبثًا بكلمته..
فإنني أكرم ربي وملكي كأعظم ما يكون الإكرام.

«تشارلز سبرجن»

لماذا كُتب هذا الكتاب؟ وكيف؟

إن الهدف المنشود لهذا الكتاب هو أن يتعظم الله فوق كل الأشياء. كما أستطيع القول أن الهدف النهائي يتمثل في مدح مجد نعمة الله. وقصدت من هذين الهدفين أن أقول إن الشعور بعظمة الله هو أساس تسبيحه والمدح. فإنك لا تستطيع أن تمدح ما لا تقدره، أو بمعنى آخر، إن الله يتمجد أكثر فينا عندما يكون هو مصدر اكتفائنا وشبعنا.

من ناحية أخرى يهدف هذا الكتاب إلى أن يعتق القلوب البشرية من العبودية للذات الخطية الزائلة. فالخطية هي ما تفعله عندما يكون قلبك غير مكتفٍ بالله. فليس هناك مَنْ يخطئ من منطلق التزامه بالخطية. فنحن نخطئ لأن الخطية تعدنا بالسعادة. هذا الوعد يظل يستعبدنا إلى أن نؤمن أننا ينبغي أن نشتاق إلى الله

أكثر من الحياة ذاتها (مز ٦٣: ٣). معنى ذلك أن قوة وعد الخطية تكسرها قوة الوعد الإلهي. إن كل ما يعدنا الله به في يسوع يقف في مقابله ما تعدنا الخطية به بدون يسوع. هذه الصورة العظيمة لمجد الله هي ما أطلق عليه «النعمة المستقبلية». والاكتفاء بذلك هو ما أسميه الإيمان. لذا فالحياة التي أكتب عنها في هذا الكتاب تُدعى «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية».

أزمة الحياة الروحية

يتحدث «أليستر ماكجراث»، وهو أستاذ اللاهوت في جامعة أكسفورد ودارس متعمق للمذهب الإنجيلي في أمريكا، عن أزمة في الحياة الروحية لأصحاب المذهب الإنجيلي في أمريكا.[١] يقول في حديثه إن المذهب الإنجيلي، خاصة في أمريكا، يقود إلى ضعف الكنيسة:

> "لقد قام الإنجيليون بعمل رائع في الكرازة للناس واقتيادهم إلى الخلاص بمعرفة يسوع المسيح مخلصًا وربًا، لكنهم يفشلون في أن يقدموا للمؤمنين منهجًا يعيشون به ليستمروا وينموا في العلاقة الروحية معه... هناك الكثيرون يبدأون حياة الإيمان بحماسة كبيرة، لكنهم بعد وقت قصير يكتشفون الصعوبات التي تواجههم؛ فتبدأ آمالهم العريضة ونواياهم الطيبة في الانزواء. فالروح قد يكون نشيطًا، أمّا الجسد فضعيف. فالناس يحتاجون إلى ما يدعم مواصلة سيرهم حتى عندما تنطفئ شعلة الحماس."[٢]

إن هدفي وصلاتي أن يقدِّم هذا الكتاب هذا النوع من الدعم: يقدم «منهجًا للحياة يساعد المؤمنين على المواصلة والنمو». لقد خرج هذا الكتاب من واقع أتون الخدمة الرعوية حيث تجعل نيران الألم الممزوجة بالحماس كل فرح أعمق وكل حمل أخف. وهو ثمرة للتأمل غير المنقطع في كلمة الله حول ما يطلق عليه دافيد بولينسون: "الواقع الوجودي والحياتي للخبرة الإنسانية في منعطفات الحياة."[٣]

التفكير الخاطئ يتبعه منهج خاطئ للحياة

لقد نمت فكرة هذا الكتاب من خلال قناعتي بأن وراء كل حياة خاطئة يكمن

تفكير خاطئ. فعلى سبيل المثال يدعونا يسوع إلى حياة الطهارة الكاملة. لكني أرى أن الكثير من المسيحيين لا يملكون تفكيرًا منهجيًا واضحًا بشأن وصايا يسوع وتحذيراته ووعوده. فعندما يقول إن علينا أن نقلع أعيننا التي تشتهي، فهو يتبع ذلك بتحذير: «لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم» (مت ٥: ٢٩). إن التهديد بالذهاب إلى جهنم بسبب الشهوة ببساطة ليس الأسلوب الذين يتكلم أو يفكر به المؤمنون المعاصرون. ويرجع ذلك ليس لأن مثل هذه التحذيرات غير موجودة في الكتاب المقدس، وإنما لأننا لا نعرف كيف نجعلها تتوافق مع الأفكار الأخرى عن النعمة والإيمان وضمان الحياة الأبدية. فنحن نفرِّغ كلمات يسوع من قوتها، لأن مفاهيمنا مشوهة. إن حياتنا المسيحية عرجاء بسبب أفكارنا شبه المسيحية عن الحياة.

إن قصة عشرين عامًا من الوعظ والتعليم والصراع من الناس الذين يريدون أن يكونوا مسيحيين حقيقيين، جعلتني أكتشف أن الطريقة التي يفكرون بها عن الحياة المسيحية غالبًا ما يستمدونها من المناخ الثقافي الذي نتنفسه وليس من التعاليم الكتابية. وليس ذلك فقط، فبعض الأفكار "المسيحية" المتوارثة تتعارض بقوة مع الكتاب المقدس بحيث أنها تعمل ضد حياة الطاعة التي تهدف هذه الأفكار عينها لأن نتشجع لكي نحياها.

دور الامتنان في التحفيز

على سبيل المثال، أحد أفكار هذا الكتاب الأساسية هو أنه نادرًا، إن لم يكن مطلقًا، ما يشجع الكتاب المقدس على الحياة المسيحية من خلال الامتنان. وذلك على الرغم من أنه على المستوى العام يُقَدَّم الامتنان في الكنيسة على كونه «القوة المحفزة على الحياة المسيحية الحقيقية». وأنا أوافق على أن الامتنان عاطفة مسيحية جميلة ولا يمكن الاستغناء عنها إطلاقًا. فلا يمكن لأحد أن يخلص دون أن يمتلكها. لكنك سوف تبحث دون جدوى في الكتاب المقدس في سبيل العثور على أية علاقة واضحة بين الامتنان والطاعة. فإذا لم يُقصد أن يكون الامتنان، كما سأحاول التوضيح في الفصلين الأول والثاني، المحفز الأساسي على الطاعة المسيحية الحقيقية، فربما يكون هذا واحدًا من الأسباب التي تعرقل الكثير من المجهودات نحو بلوغ حياة القداسة. هل من الممكن أن يكون الامتنان للنعمة الماضية قد تم إقحامه ليكون القوة الدافعة لحياة القداسة، بينما الإيمان فقط بالنعمة المستقبلية هو المنوط بذلك؟ هذه القناعة هي واحدة من القوى المحركة وراء إصدار هذا الكتاب.

النعمة المشروطة غير المستحقة

لقد اكتشفت كذلك أن بعض التصورات المشهورة عن النعمة تصل من الانحراف والتشويه إلى حد أن بعض التعاليم الكتابية من المستحيل تقريبًا تقديمها للناس. على سبيل المثال، المفهوم الكتابي عن النعمة المشروطة غير المستحقة غير مفهوم تقريبًا لدى الكثير من المؤمنين المعاصرين الذين يفترضون أن غياب الشرط هو جوهر كل نعمة.

دون شك، هناك نعمة غير مشروطة. وهي تمثل الأساس المجيد لكل أمر آخر في الحياة المسيحية. لكن هنالك أيضًا نعمة مشروطة. فبالنسبة لغالبية الناس الذين يتنفسون هواء النعمة والرحمة الشائع في زماننا هذا تبدو النعمة المشروطة مصطلحًا يحمل تناقضًا كبيرًا، كأن تقول مثلاً: الريش الثقيل. لذا، على سبيل المثال عندما يسمع الناس الوعد الوارد في يعقوب ٤: ٦ بأن الله: «يعطي المتواضعين نعمة»، فإن الكثيرين يجدون صعوبة في تخيل أن يكون التواضع شرطًا للحصول على نعمة. أو عندما يستمعون للوعد الثمين بأن: «كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رو ٨: ٢٨) فإنهم نادرًا ما يسمحون لأنفسهم بأن يتأملوا هذا الوعد بالنعمة الذي يشترط دعوة الله لنا ومحبة الله لنا.

غير أن وعود النعمة المشروطة تتخلل نسيج تعاليم العهد الجديد عن كيفية ممارسة الحياة المسيحية: «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي» (مت ٦: ١٤)، «اتبعوا... القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢: ١٤)، «ولكن إن سلكنا في النور كما هو في النور... دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا في كل خطية» (١يو ١: ٧). إنني أرى أن التعليم الكتابي الذي تُبنى عليه هذه النوعية من الوعود المشروطة غير مألوف لأذهان المؤمنين اليوم. بعض المفاهيم الشائعة عن النعمة لا يمكن أن تتضمن أي نوع من الشرطية وإلا اعتبرت نوعًا من الناموسية. لكن إذا كان قصد الله هو أن تساعدنا هذه التعاليم على أن نحيا حياة أصيلة من المحبة المسيحية، أنتعجب من أننا نفشل غالبًا في تحقيق ذلك؟ نحن، كمجتمع وككنيسة لم نمنح الأمر قدرًا كافيًا من التفكير. والنتيجة هي أننا أصبحنا نتشكل في غالب الأمر بالأفكار الشعبية بدلاً من التشبع بالمبادئ الكتابية. وأصبحت الكنيسة تشبه العالم كثيرًا.

لكن هذا الكتاب يؤكد على قناعتي بأن التفكير الصحيح يشكل الحياة الصحيحة. ماذا يكون رأينا عندما يعامل أحدهم وصايا الله على كونها مضادة للحياة التي تملأها نعمة الله؟ ما معنى قول يوحنا: «فإن هذه هي محبة الله: أن نحفظ وصاياه. ووصاياه ليست ثقيلة» (١يو ٥: ٣) فيم نفكر عندما نسمع يسوع، من جهة، يقول: «نيري هين وحملي خفيف»، لكن من جهة أخرى: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى

الحياة» (مت ١١: ٣٠؛ ٧: ١٤)؟ كيف يمكن للحياة المسيحية أن تكون سهلة وصعبة في آن واحد؟ ماذا يكون رأينا عندما نقرأ أن التبرير يكون بالنعمة فقط (رو ٣: ٢٨)، في حين نقرأ أيضًا أن الملكوت مُقدَّم لـ «الذين يحبونه» (يع ٢: ٥)؟ كيف يجتمع الإيمان والمحبة كضرورتين للخلاص النهائي؟ هذا الكتاب يمثل إجابة على أسئلة كهذه.

إن صميم هذا الكتاب يدور حول قناعتي بأن وعود النعمة المستقبلية إنما هي مفاتيح الحياة المسيحية المتمثلة بالمسيح. واليد التي تدير هذا المفتاح هي الإيمان، والحياة التي تنتج عن ذلك هي ما ندعوها «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية». ولا أعني بكلمة «المستقبلية» نعمة السماء والدهر الآتي فقط، لكني أعني بذلك النعمة التي تبدأ الآن، في هذه اللحظة تمامًا، وتحفظ حياتك حتى نهاية هذه الفقرة. ولا أعنى بالنعمة فقط غفران الله بالتغاضي عن خطاياك، لكني أعني أيضًا قوة الله وجماله اللذين يحفظانك كيلا تخطئ. ولا أعني فقط الإيمان الثقة في أن يسوع قد مات من أجل خطاياك، لكن أيضًا الثقة في أن الله سوف «يهبنا أيضًا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢). فالإيمان في الأساس هو شيء يتعلق بالمستقبل.. «الثقة بما يرجى» (عب ١١: ١). وجوهره هو الشبع العميق بكل ما وعد الله أن يصير لنا في المسيح.. ابتداءً من الآن.

ما الذي حرر موسى؟

هذا الفهم للإيمان يفسر لماذا يعمل الإيمان من خلال المحبة (غل ٥: ٦). إن قوة الإيمان المغيرة في النعمة المستقبلية يرجع إلى الشبع المحرر الذي تجعله النعمة المستقبلية مستمرًا في القلب. على سبيل المثال، فكِّر في ماهية القوة التي استطاع موسى بها التحر من «التمتع الوقتي بالخطية» في قصور مصر؟ الإجابة الموجودة في عبرانيين ١١: ٢٤– ٢٦ هي أنه قد تحرر من خلال قوة الإيمان في النعمة المستقبلية: «بالإيمان موسى ... فضل بالأحرى أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية، حاسبًا عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر، لأنه كان ينظر إلى المجازاة». لقد انتصر وعد الله على وعد الخطية، ونتج عن ذلك حياة ملؤها المحبة المضحية. هذا الكتاب ما هو إلا محاولة لفهم تلك القوة وتطبيقها– أعني القوة المطهرة حتى يتعظم الله فوق كل خطية.

"توماس شالمرز": "القوة الطاردة للمحبة الجديدة"

كان «توماس شالمرز» واعظًا قديرًا وأستاذًا في جامعة سانت أندروز بأسكتلندا.

وبعد سبع سنوات من الخدمة غير المؤثرة في الريف، حظي بلقاء عميق مع المسيح غيَّر قلبه وجعل وعظه ناريًا. واحدة من أشهر عظاته تبدأ بكلمات تعبِّر بشدة عن هدف هذا الكتاب:

> "هناك طريقان قد يحاول من خلالهما أستاذ في علم الأخلاقيات أن يطرد من القلب البشري محبته للعالم: إمّا بإظهار غرور العالم حتى يقتنع القلب ببساطة أن يترك اهتمامه بشيء لا يستحق الاهتمام؛ وإمّا بإبراز شيء آخر، حتى لو كان هذا الشيء هو الله، بحيث يكون أكثر استحقاقًا لأن يتعلق به القلب، وبذلك يقتنع القلب لا بأن يترك محبة قديمة وليس في وسعه أن ينجح في ذلك، بل أن يستبدل المحبة القديمة بأخرى جديدة. وهدفي هو أن أبين أنه بحسب تكوين طبيعتنا، فإن الطريقة الأولى غير مجدية تمامًا ولا تأثير لها، وأن الطريقة الأخرى فقط تكفي لإنقاذ القلب وشفائه من المحبة الخاطئة التي تهيمن عليه."[٤]

إن هدفي هو نفسه هدف «توماس شالمرز»، وبالتحديد أن أستأصل من القلب الإنساني محبته للعالم بأن "أبرز شيئًا آخر، تحديدًا الله، لكونه أكثر استحقاقًا لأن يتعلق به القلب." وبهذه الطريقة آمل وأصلي أن أعظِّم (كما يفعل التليسكوب وليس الميكروسكوب) قيمة الله اللامتناهية.

أختلف عن «شالمرز» في أنني لا أثبت قضيتي بناءً على «تكوين طبيعتنا»، ولكن على التعاليم الكتابية بشكل أساسي. لذا سأحاول من خلال الكتاب المقدس إثبات أن الإيمان المخلِّص في جوهره يعني تعظيم القيمة العليا لما يمثله الله لنا في المسيح. وسوف أحاول إظهار أن هذا الإيمان ليس فقط مفتاح السماء، لكنه أيضًا المفتاح لحياة القداسة. وهذا هو السبب وراء تعليم الكتاب المقدس بأنه لا سماء بدون قداسة عملية (عب ١٢: ١٤)، مع أن الوصول إلى السماء يكون «بالنعمة، بالإيمان» (أف ٢: ٨).

هذا الكتاب بمثابة تأمل مطوَّل حول شهادة الكتاب المقدس بأن القلب الإنساني يتطهر بالإيمان (أع ١٥: ٩)، وأن كل أعمال إطاعة المسيح إنما هي من «عمل الإيمان» (١تس ١: ٣؛ ٢تس ١: ١١)، وأن غاية كل وصية كتابية هي «المحبة من... إيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥)، وأن هابيل ونوحًا وإبراهيم وراحاب نالوا قوة للطاعة «بالإيمان» (عب ١١: ٤، ٧، ٨، ٣١)، وأن «التقديس (يكون) بـ ... تصديق الحق» (٢تس ٢: ١٣؛ أع ٢٦: ١٨)، وأن «الإيمان (يعمل).. بالمحبة» (غل ٥: ٦)، وأن القصد من الناموس الإلهي كله هو ألا نسعى إلى حفظه بالأعمال بل «بالإيمان» (رو ٩: ٣٢).

"چي. سي. رايل" وذهوله بسبب وعود الله

هذا الإيمان العجيب التأثير يمتلك قوة في ذاته؛ لأنه يتطلع إلى المستقبل ويقبل وعود الله لكونها مشبعة أكثر من وعود الخطية. معنى هذا أن وعود الله لها أهمية مركزية في هذا الكتاب. في هذا المقام أشارك «چي. سي. رايل» ذهوله واندهاشه وهو يستعرض بانوراما الوعود الإلهية في كلمة الله، كما أندهش معه من الطريقة المليئة بالحكمة والمحبة التي قدمها الله بها لكي يقنعنا بالإصغاء والطاعة:

> يقدِّم الله دائمًا للإنسان محفزات لكي يصغي له ويطيعه ويخدمه... فقد أظهر كمال معرفته بالطبيعة البشرية بأن نشر في كل جنبات الكتاب المقدس ثروة هائلة من الوعود التي تتناسب مع كل أنواع الخبرات والظروف الحياتية. وهذه الوعود بالآلاف، كما أن موضوعاتها متعددة. فمن الصعب أن تجد مرحلة في حياة الإنسان، من الطفولة إلى الشيخوخة، أو موقفًا يجد فيه الإنسان نفسه، ولا تجد تشجيع الكتاب المقدس لهذا الإنسان لكي يفعل ما هو مستقيم أمام الرب. فخزانة الله مليئة بالوعود لكل ظروف الحياة. فهناك وعود عن رحمة الله غير المتناهية وشفقته، وعن استعداده لقبول كل مَنْ يتوب ويؤمن، وعن رغبته في أن يغفر لأعظم الخطاة ويسامحه ويعتقه، وعن قدرته على تغيير القلوب وتجديد طبيعتنا الفاسدة، وعن تشجيعات للصلاة والاستماع لرسالة الإنجيل والاقتراب من عرش النعمة، وعن القوة لأداء الواجب، والراحة في الضيق، والإرشاد في وقت الحيرة، والمعونة في المرض، والتعزية في الموت، والدعم عند الحرمان، والسعادة فيما وراء القبر، والمكافأة في المجد– في كل هذه الأمور يوجد كنز لا يفنى من الوعود في كلمة الله. ولا يمكن لأحد أن يتخيل حجم هذه الوعود ما لم يدرس كلمة الله بعناية وهو يحمل في ذهنه هذا الأمر. فإذا ما ساور أحدهم الشك بشأن هذا الأمر فلا يسعني إلا أن أقول له: «تعال وانظر».[٥]

هذا ما أريد من القارئ العزيز أن يفعله بشأن هذا الكتاب: «تعال وانظر!» ولتسهيل الأمر، أقدم الآن فكرة عامة عن ترتيب الكتاب.

لماذا يشتمل الكتاب على واحد وثلاثين فصلاً؟

ليس من سبيل المصادفة أن يتضمن الكتاب واحدًا وثلاثين فصلاً؛ فالأمر كان

مقصودًا منذ البداية، ومستوحى من كتاب «أندرو موراي» «اثبتوا في المسيح» (Abide in Christ) وكتاب «سي. إس. لويس» «رسائل خُربر» (Screwtape Letters)، اللذين يشتملان على واحد وثلاثين فصلاً– فصل لكل يوم من أيام الشهر. وقد شرح «موراي» تصميم كتابه كالتالي:

> "فقط من خلال تثبيت الذهن لفترة من الوقت على واحد من دروس الإيمان يمكن للمؤمن تدريجيًا أن يستوعبها كلية. وعندي رجاء أنه سيكون عونًا للبعض عندما يأتون يومًا فيومًا لمدة شهر لينهلوا من هذه الكلمات الثمينة: «اثبتوا فيّ»."[٦]

إنني أرجو أن يتمكن هؤلاء الأشخاص، الذين لا يملكون وقتًا كافيًا، من قضاء بعض الوقت يوميًا لمدة شهر لقراءة فصل من كتاب عن: «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية». وقد حرصت على أن تكون الفصول قصيرة نسبيًا من أجل تحقيق هذا الهدف. إن ميزة هذه القراءات اليومية ليست فقط، كما يقول «موراي»، "الاستيعاب الكلي"، وإنما التأمل المتأني أيضًا. ما أعظم الفهم الذي يأتي من التفكير المتمهل حول فكرة جديدة– أو صياغة جديدة لفكرة قديمة! إني أريد لهذا الكتاب أن يُقرأ على النحو الذي أراد الرسول بولس من تيموثاوس أن يقرأ به رسائله: «افهم ما أقول. فليعطك الرب فهمًا في كل شيء» (٢تي ٢: ٧). إن كل كتاب يستحق أن يقرأ يشير إلى هذه الكلمات: «افهم ما أقول». إنني لا أعتقد أن ما كتبته عسر على الفهم إذا ما أراد المرء أن يُعمل فيه التفكير. عندما يشتكي أبنائي من أن الكتاب الجيد يكون صعبًا في قراءته أقول لهم: "تنظيف التربة سهل، لكن كل ما تخرج به يكون أوراقًا؛ أمّا الحَفْر فصعب، لكنك قد تجد بسببه جواهر."

لقد حاولت أن أكتب كما أعظ؛ آملاً أن أعلِّم الذهن وأحرك القلب. وأنا لا أستخف بالتحديات الخاصة بالقراءة. فعلى سبيل المثال فإني لم أقلِّد «چون أوين»، الراعي واللاهوتي البيوريتاني في القرن السابع عشر. فقد استهل واحدًا من كتبه بتحذير لا يخلو من الاستهانة بقرائه: "أيها القارئ... إذا كنت مثل الكثيرين في هذا الزمان.. زمان المسخ، فلست سوى قارئ سطحي، ويمسك الكتاب ويتركه دون أن يتعلَّم شيئًا."[٧] في واقع الأمر ليس هناك شخص أعرفه وقرأ «چورچ أوين» إلا واشتكى من أنه يكتب بأسلوب ثقيل وغير سلس، يصعب استيعاب أفكاره. غير أنه كان محقًا في شيء.. فبعد ثلاثمائة عام من وفاته لا تزال كتاباته التي تضم أربعة وعشرين مجلدًا يُعاد طباعتها حتى اليوم. ولايزال الناس يصارعون مع أسلوبه بحثًا عن الجواهر. ما الدرس المستفاد هنا؟ الدرس هو أن دسم الحكمة الكتابية، وليس البساطة، هو الذي

يغذي الكنيسة. ولست أنا الذي أحكم ما إذا كان هناك دسم روحي للكنيسة في هذه الصفحات، وإن كان ذلك هو ما أهدف إليه.

نظرة عامة على الكتاب

إذا كانت العقيدة الصحيحة تغذي الحياة الصحيحة، معنى ذلك أن الحق يجب أن يسبق التطبيق في كتابة أي كتاب. لكن الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك؛ فغالبيتنا يحتاجون إلى دليل على أن ما نقرأه ليس فقط صحيحًا بل مفيدًا أيضًا. فهناك أمور صحيحة كثيرة ليس لها معنى. فنحن لا نملك سوى حياة واحدة لنعيشها، وربما لا نملك سوى ساعات قليلة (أو أقل من ذلك) في الأسبوع للقراءة. لذا يجب أن تكون الأمور مفيدة بقدر ما تكون صحيحة.

لهذا السبب، لم أنتظر حتى نهاية الكتاب لتقديم بعض المضامين العملية للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية.. فالتطبيقات ممتزجة بالأساسيات. وهناك ثمانية فصول متفرقة تحمل عنوان: «تطبيقات القوة المطهرة». في هذه الفصول أتناول ثمانية من مجالات الصراع الإنساني مع الشر. وأحاول توضيح كيف أن الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية هي الطريق للانتصار على وعود الخطية الخادعة. فمن ناحية، هذا الترتيب أقل من أن يكون نموذجيًا؛ لأن بعض التطبيقات تأتي قبل الأساس المتعلق بها. لكن من ناحية أخرى، هكذا تسير الحياة؛ فنحن نتعلم ونعيش بما تعلمناه، ثم ننقح ما تعلمناه ونتعلم أكثر، وهكذا. وأعتقد أن فوائد التعرف المبكر والمتكرر للتطبيق العملي تفوق بكثير مساوئه.

ذكرت في بداية هذه المقدمة أن الهدف من هذا الكتاب هو تحرير قلوب البشر من ملذات الخطية الزائلة. تلك الفصول تحت عنوان: «تطبيقات القوة المطهرة» تمثل النقاط التي يصل فيها هذا الهدف إلى ذروة تركيزه. كيف ينتصر الإيمان في النعمة المستقبلية على القلق، الكبرياء، الخزي، عدم الصبر، الطمع، المرارة، اليأس، والشهوة؟ هذا هو السؤال الذي تحاول هذه الفصول المتفرقة الإجابة عليه.

يبدأ الكتاب بفصلين يفرقان بين الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية والحياة في امتنان نحو النعمة الماضية. والفكرة التي أناقشها هي أن نظرة الامتنان للماضي لم يقصدها الله أن تكون هي المحفز الأساسي للطاعة. فنظرة الإيمان المستقبلية هي المنوطة بذلك (الفصلان الأول والثاني). يتبع ذلك فصلان (الرابع والخامس) يشرحان المقصود من كلمتي «النعمة» و«المستقبلية». وهما يجيبان على السؤال: هل يذكر الكتاب المقدس الكثير عن النعمة المستقبلية؟ هل هو مفهوم كتابي أصيل؟

عند هذه النقطة يمكنني الشعور بالتوتر الذي ينشأ عند أولئك الذين يعتزون مثلي بروعة النعمة الماضية. لذا في الفصول من السابع إلى التاسع أحاول معالجة هذا التوتر. والهدف هنا هو توضيح أن الأعمال الخلاصية العظيمة للنعمة الماضية، على سبيل المثال، موت وقيامة يسوع، تمثل أساسًا لا غنى عنه لإيماننا في النعمة المستقبلية، لكن قوتهما تكمن تحديدًا في أنها تؤكد على النعمة المستقبلية التي نرجوها. فحياة يسوع وموته كانا بمثابة النَعَم الإلهية لكل وعوده (٢كو ١: ٢٠). والمسيح جاء إلى العالم «حتى يثبت مواعيد الآباء» (رو ١٥: ٨). وبسبب موت المسيح سوف «يهبنا الله أيضًا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢). وأولئك الذين بررهم الله، سوف يمجدهم حتمًا (رو ٨: ٣٠). إن النعمة الماضية هي الأساس للإيمان المغير للحياة في النعمة المستقبلية.

يستعرض الفصلان الحادي عشر والثاني عشر العهدين القديم والجديد ليجيب على السؤال: «لماذا تفتر الطاعة في بعض الأحيان بينما تنتعش في أحيان أخرى؟» والنتيجة التي أصل إليها هي أن الطاعة تقوم وتسقط تبعًا للإيمان في النعمة المستقبلية. فكل من الشريعة الإلهية في العهد القديم وتعاليم يسوع والرسل في العهد الجديد تهدف إلى أن يتبعها البشر، كما يقول الرسول بولس في رومية ٩: ٣٢، ليس «بالأعمال» بل بالإيمان في النعمة المستقبلية. هذا يدفعنا لأن نبرز السؤال: «لماذا ينتج الإيمان طاعة؟ لماذا خطط الله أن يكون الأمر هكذا؟ ما الذي يجعل الإيمان يأتي بالضرورة بثمر البر والمحبة؟» تناقش الفصول من الرابع عشر إلى السادس عشر هذه الأسئلة تحت عنوان: «طبيعة الإيمان في النعمة المستقبلية». ما يبرز هنا أن الإيمان هو الوسيلة التي عينها الله لحياة البر والقداسة؛ لأن الإيمان أكثر من أي شيء آخر يبرز حرية النعمة ويعظِّم مجد الله. وهو يفعل ذلك، لأن الإيمان في النعمة المستقبلية: يعني بالأساس الاكتفاء بكل ما يعدنا به الله في المسيح. هذا النوع من الإيمان يعظِّم الله؛ لأن الله يتمجد فينا عندما نجد نحن اكتفاءنا وشبعنا في شخصه.

بعد سبعة عشر فصلاً من النظر إلى الديناميكيات الكتابية للحياة بالإيمان في وعود الله، نرى لزامًا علينا عند هذه النقطة أن نتعامل مباشرة مع شرطية الكثير من تلك الوعود. ففي واقع الأمر كيف يمكن للمرء أن يثق في وعد مشروط (الفصل الثامن عشر)؟ مَنْ هم المستفيدون من الوعود (الفصل التاسع عشر)؟ ما هي حدود الشروط المصاحبة لوعود النعمة المستقبلية (الفصل العشرون)؟ أستخلص من هذه الفصول الثلاثة أن الإيمان والمحبة هما شرطان ينبغي أن يستوفيهما الإنسان

المؤمن لكي يستمر في التمتع بمكاسب النعمة المستقبلية. غير أن الإيمان والمحبة ليسا شرطين متماثلين. فالإيمان يعاين مجد الله في وعود النعمة المستقبلية ويتمسك بكل ما يعدنا به الله في المسيح. هذا الفهم الروحي والابتهاج بالله هو برهان أكيد على أن الله قد دعانا لنكون مستفيدين من نعمته. هذا البرهان يحررنا حتى نثق أن الوعد لنا. وهذه الثقة تمكننا من محبة الآخرين، الأمر الذي يؤكد لنا حقيقة إيماننا. وهكذا فالإيمان هو الشرط الأساسي الذي يدخلنا في نطاق قوة النعمة المستقبلية، أمّا المحبة فهي شرط فقط لتأكيد حقيقة هذا الإيمان.

مع هذه النظرة لكيفية إدراك الإيمان لقوة النعمة المستقبلية، نحن مستعدون الآن لاكتشاف كيف يعمل الإيمان من خلال المحبة، كما يقول بولس في غلاطية ٥: ٦ (الفصل الثاني والعشرون)، وكيف يقوينا للقيام بكل أنواع الخدمة العملية (الفصل الثالث والعشرون). إن ما يبدو واضحًا بينما نصف العلاقة بين الإيمان والمحبة هو أن الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية ليست حياة هينة أو سهلة. إنها حياة كاملة من الجهاد ضد عدم الإيمان أو كما يدعوها بولس في ١تيموثاوس ٦: ١٢ «جهاد الإيمان الحسن» (الفصل الخامس والعشرون). معنى هذا أن علينا أن نحذر من ألد أعداء الإيمان، وهو الشيطان، كذلك علينا فضح مخططاته التي ترمي إلى إبطال ثقتنا في النعمة المستقبلية (الفصل السادس والعشرون).

ومع اقتراب الكتاب من نهايته أناقش حقيقة أنه مادام هذا الدهر لم ينته، فإن كل واحد منا سوف يعاني ويموت: «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢). هذا الأمر يمثل تهديدًا كبيرًا للإيمان في النعمة المستقبلية. لكن هنا أيضًا تكثر الوعود الإلهية، فالله يوضح بشكل جلي أن المعاناة والموت كليهما مصدران لنعمة أكثر، وسوف يقودان في نهاية المطاف إلى فرح أبدي لا ينقطع (الفصلان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون). سوف نلبس أجسادًا جديدة على أرض جديدة، وسوف يقضي الله الأبدية غامرًا إيانا بكنوز نعمته الفائقة (الفصل الثلاثون).

الفصل الأخير موجه للأشخاص الذين يحبون رؤية جذور الأشياء وعلاقاتها ببعضها البعض. في هذا الفصل أحاول أن أوضح كيف أن فكرتي عن الإيمان في النعمة المستقبلية يتفق مع فكر اللاهوتي والراعي «جوناثان إدواردز» في القرن الثامن عشر. وأحاول إظهار كيف أن أفكار هذا الكتاب تمثل استمرارًا لرؤية الله والحياة التي حاولت إبرازها في كتابيَّ السابقين: «الاشتياق إلى الله» (Desiring God)، و«ملذات الله» (Pleasures of God).

ما تنتهي إليه هو ما يهم

مع هذا الإدراك لكيفية ترابط الفصول معًا، أنت حر بالطبع في أن تبدأ قراءتك من أي جزء يروق لك. إن اهتمامي ليس في المقام الأول من أين تبدأ، لكن إلى أين تنتهي. هل إلى إيمان أعمق في النعمة المستقبلية؟ أصلي أن يكون الأمر كذلك. وأصلي أن تسمع الدعوة وتطيعها لتعثر على الفرح في كل ما يعدنا به الله في المسيح. وأصلي أيضًا لهذه القوة الهائلة لهذه المحبة الجديدة أن تحررك من ملذات الخطية الزائلة ويمكنك من أن تحيا حياة ملؤها المحبة الباذلة. فإذا كنا بهذه الطريقة نثبت أن الله أعظم من الكل، فإن الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية سوف تكون لمدح مجده. فالله يتمجد فينا بالأكثر عندما نجد نحن اكتفاءنا فيه أكثر من أي شيء آخر.

المقدمة رقم (٢)

هل بواسطة الإيمان
نقبل المسيح برًا لنا
بدون أي استحقاق بسبب أعمالنا؟
حسنًا.. لكن نفس هذا الإيمان، إذا كان كافيًا لقبول المسيح،
فهو أيضًا كافٍ أن «يعمل بالمحبة»، و«يطهر قلوبنا».
هذه هي إذًا فاعلية إنجيل الحرية، رعمل تقديسه،
بحيث إن نفس الإيمان الذي يقبل العطية،
يصبح سندًا إلهيًا قويًا للطاعة.

«روبرت إل. دابني»

إلى اللاهوتيين

لا يحتاج كل شخص لقراءة هذا الجزء. لكنه قد يكون ذا فائدة للبعض إذا ما وجهت الكتاب صوب تاريخ علم اللاهوت وتقسيماته. من هذه الزاوية أقول إن الغرض من هذا الكتاب هو البحث في كيف أن الإيمان الذي يبرر، يُقدِّس أيضًا. أو لكي أكون أكثر تحديدًا (حيث أنني هنا أوجه حديثي إلى لاهوتيين) أقول إن الهدف هو دراسة كيف أن الإيمان، الذي هو وحده الوسيلة التي من خلالها تقوم النعمة الغافرة بعملية التبرير، هو أيضًا الإيمان الذي من خلاله[١] تقوم النعمة المساندة بعملية التقديس. يأتي التعبير البروتستانتي الكلاسيكي في شكله المتعارف عليه عن العلاقة بين الإيمان والتقديس كالتالي: "الإيمان وحده هو

الذي يبرر، لكن الإيمان الذي يبرر ليس وحده." بمعنى أن الإيمان المبرِّر تصاحبه دائمًا الأعمال الصالحة. غير أن إقرارات الإيمان المصلحة تذهب إلى أبعد من ذلك.. فهي تقول إن الإيمان المبرِّر لا ترافقه فقط الأعمال الصالحة، لكنه بصورة ما يُعد أداة مسببة لهذه الأعمال.

إقرار إيمان أوجسبرج

كتب إقرار إيمان أوجسبرج اللوثري اللاهوتي الألماني المصلح «فيليب ميلانكتون» (١٤٩٧– ١٥٦٠)، وصدّق عليه «مارتن لوثر»، وقدمه المصلحون الألمان لشارل الخامس في عام ١٥٣٠. وهو يصف العلاقة بين الإيمان المبرِّر وحياة الطاعة المترتبة عليه في البنود التالية:

> • المادة الرابعة: [الكنائس بالإجماع] تعلِّم أننا لا نقدر أن نتبرر قدام الله بقوتنا أو عن استحقاق أو بأعمالنا. لكننا نتبرر مجانًا من أجل المسيح، عندما نؤمن...
>
> • المادة السادسة: كما تعلِّم [الكنائس] أيضًا أن هذا النوع من الإيمان يجب أن ينتج ثمارًا جيدة، ووجب على الناس أن يعملوا أعمالاً حسنة كهذه بموجب وصايا الله ولأنها مشيئة الله، وليس على سبيل أي استحقاق من جهتنا.

إلى هذا الحد يقول إقرار أوجسبرج ببساطة إن الإيمان المبرِّر "ينتج ثمارًا جيدة". لكن في المادة رقم ٢٠ يذهب إلى أعمق من ذلك في شرح هذه العلاقة:

> إنه الإيمان الذي يجعل الروح القدس يحرك القلب ليعمل أعمالاً صالحة. ولذلك يقول أمبروز: "الإيمان هو مُوَلِّد الإرادة الصالحة– الأعمال الصالحة." لذلك ينبغي ألا يلام هذا التعليم الإيماني بدعوى أنه ينهى عن الأعمال الصالحة، لكن العكس هو الصحيح، إذ أنه يشيد بها ويشجع عليها ويرينا أي نوع من الأعمال الصالحة يجب أن نفعل. فبدون الإيمان لا يمكن لطبيعة الإنسان أن تحقق وصايا الله سواء في اللوح الأول أو الثاني[*]. فبدون الإيمان، لا يمكن للإنسان أن يدعو

[*] المقصود هنا لوحا الشريعة، حيث يتضمن اللوح الأول الوصايا المختصة بعلاقة الإنسان بالله، أما اللوح الثاني فيتضمن الوصايا المختصة بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان. (المترجم)

> الله، أو يرجو منه شيئًا، أو يحمل الصليب، لكنه يجنح ليلتمس العون من البشر ويثق في قوة الناس. وبالتالي فإن كل الشهوات والمشورات البشرية تتسلط على القلب مادام الإيمان والثقة بالله غائبين."[٢]

إن عقيدة التبرير بالإيمان "تبيِّن لنا كيف علينا أن نقوم بالأعمال الصالحة." وأعني بهذا أن إقرار أوجسبرج لم يكتفِ بالقول بأن الأعمال الصالحة لا ترتبط فقط بالإيمان المبرِّر بل أنها تنبع منه». "فالإيمان هو مولِّد... الأعمال الصالحة." وقوة "الشهوات والمشورات البشرية" تنكسر عندما يتواجد الإيمان. وهذا الكتاب محاولة لفهم لماذا وكيف يملك الإيمان قوة للتقديس.

إقرار الإيمان السويسري

صيغ اعتراف الإيمان السويسري الأول على يد اللاهوتيين السويسريين (هينريخ بولينجر وسيمون جرينايوس وأوزوالد ميكونيوس وغيرهم) في مدينة «بازل» بسويسرا عام ١٥٣٦. وقد أتى معبرًا عن إيمان كل المقاطعات السويسرية في تلك الحقبة من زمن الإصلاح. عنوان المادة ١٣ من هذا الاعتراف هو: «كيف تُحسب لنا نعمة المسيح واستحقاقه والثمار التي تنبع منها». ونصها كالتالي: "نحن نأتي إلى الأعمال العظيمة والسامية للنعمة الإلهية والتقديس الحقيقي للروح القدس ليس من خلال استحقاقنا أو قوتنا، ولكن بالإيمان الذي هو نعمة وعطية كاملة من الله." ثم تأتي المائدة ١٤ لتشرح العلاقة بين هذا الإيمان والأعمال:

> نفس هذا الإيمان إنما هو أساس ثابت قوي يقيني وممسك بكل الأمور التي يرجوها المرء من الله. فمنه تنمو المحبة كثمرة، ومن هذه المحبة تأتي كل أنواع الفضائل والأعمال الصالحة. ورغم أن المؤمنين يختبرون ثمرة الإيمان هذه، فإننا لا ننسب برهم أو خلاصهم الذي حصلوا عليه إلى مثل هذه الأعمال، بل إلى نعمة الله. هذا الإيمان يجد شبعه في رحمة الله وليس في أعماله، رغم أنه يثمر عددًا لا حصر له من الأعمال الصالحة. هذا الإيمان هو بمثابة الخدمة الحقيقية التي ترضي الله.[٣]

وهكذا يؤكد اعتراف الإيمان السويسري أن المحبة تنبع من الإيمان وتؤدي إلى كل الفضائل. فالإيمان لا يتواجد فقط بجانب ثمرة الطاعة، لكن هو نفسه يأتي بعدد لا حصر له من الأعمال الصالحة.

البنود التسع والثلاثون لكنيسة إنجلترا

تم نشر المواد التسع والثلاثين لعقيدة كنيسة إنجلترا كتعبير عن الإصلاح الأنجليكاني في عام ١٥٧١. ويتسم تعليمها عن التبرير والأعمال الصالحة بالصراحة والوضوح:

> نحن نُحسب أبرارًا أمام الله، فقط بسبب استحقاق ربنا ومخلصنا يسوع المسيح بالإيمان وليس بسبب أعمالنا أو استحقاقنا. ولذا فإن تبريرنا بالإيمان فقط يعتبر عقيدة صالحة ومليئة بالتعزية.. وأن الأعمال الصالحة، التي هي ثمر الإيمان وتتبع التبرير، لا يمكنها أن تزيل خطايانا أو تتحمل قسوة الدينونة الإلهية، إلا أن الله يُسر بها ويقبلها في المسيح، وتنبع بالضرورة من إيمان حقيقي حي. بحيث أنه من خلالها يصبح الإيمان ظاهرًا كما تُعرف الشجرة بثمرها.[٤]

إن حياة الطاعة "تنبع بالضرورة" من إيمان حقيقي حي؛ فالأعمال الصالحة هي «ثمر الإيمان». والإيمان المبرِّر لا يرافق الأعمال الصالحة فقط، بل هو الواسطة التي تستخدمها نعمة الله للإتيان بالأعمال الصالحة. وهكذا فالأعمال الصالحة هي الدليل على الإيمان الأصيل.

إقرار إيمان ويستمنستر

ربما يكون إقرار إيمان ويستمنستر هو أشهر إقرارات إيمان الكنائس المُصلَحة، وقد تم نشره في إنجلترا في عام ١٦٤٧. ويرد في الفصل الحادي عشر من هذا الإقرار ما يلي:

> (١) أولئك الذين يدعوهم الله يبررهم مجانًا؛ ليس بأن يسكب البر فيهم بل بأن يغفر لهم خطاياهم ويحسبهم ويقبلهم كأبرار لا لأجل عمل فيهم أو تم بواسطتهم لكن لأجل المسيح وحده..
>
> (٢) الإيمان، ومن ثم قبول المسيح والاتكال عليه، يعتبر الأداة الوحيدة للتبرير، لكنه لا يكون الشيء الوحيد لدى الإنسان المبرر، وإنما يصحبه دائمًا جميع النعم الخلاصية الأخرى، وهو ليس إيمانًا ميتًا بل عاملاً بالمحبة.[٥]

وهكذا يعلن هذا الإقرار بجرأة أن الإيمان الذي هو "أداة التبرير" يعمل كذلك بالمحبة. وهكذا فإنه يؤكد أن الإيمان المبرِّر إنما هو إيمان يقدِّس أيضًا، و"يعمل بالمحبة." ويوضح الإقرار بصراحة في حواشيه أن عبارة "يعمل بالمحبة" تشير إلى غلاطية ٥: ٦ «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالحبة». وهذا النص الكتابي سيحتل موقعًا مركزيًا في أفكار هذا الكتاب.

عمل كلاسيكي حول التبرير

يمكن استدعاء الكثير من الشهود الآخرين لبيان أن وجهة النظر التاريخية لإقرارات الإيمان المُصلَحة هي أن الإيمان الذي يبرر إنما هو إيمان يقدِّس أيضًا.[٦] فالإيمان الذي يبرر يقود إلى حياة الطاعة، ليس إلى الكمال بل إلى نمو في حياة القداسة. وهكذا ففي واحد من الأعمال الكلاسيكية لعقيدة التبرير يدعونا «چيمس بوكانان» إلى أن:

> نتأمل كيف أن الأعمال الصالحة تبقى مرتبطة بالإيمان والتبرير على التوالي؛ فهي بمثابة تأثيرات الإيمان، وفي نفس الوقت بمثابة البراهين على حقيقة الإيمان والتبرير. وكونها من تأثيرات الإيمان واضح لأن «كل ما ليس من الإيمان فهو خطية» (رو ١٤: ٢٣)، و«بدون إيمان لا يمكن إرضاء الله» (عب ١١: ٦)، و«غاية الوصية هي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥). ويتضح أيضًا بنفس القدر أنها لكونها تأثيرات، تُعد براهين على إيمان حقيقي وحي؛ لأنه «يقول قائل: أنت لك إيمان، وأنا لي أعمال. أرني إيمانك بدون أعمالك، وأنا أريك بأعمالي إيماني» (يع ٢: ١٨)، فضلاً عن كل الأعمال الصالحة المنسوبة للمؤمنين في العهد القديم تعود في أصلها إلى عمل الإيمان (عب ١١: ٤، ٧، ٨، ٢٣، ٣٢).[٧]

تأملات قليلة حول عمل الإيمان في التقديس

واحد من الأمور اللافتة للانتباه حول هذا التيار الفكري المتسق هو أنه لا يولي الكثير من الاهتمام للآليات الروحية الخاصة بكيف يقوم الإيمان بعملية التقديس. ربما أكون مخطئًا في هذا بما أنني لست متخصصًا في تاريخ العقيدة، لكن إحساسي

الشخصي أنه على مدى التاريخ وحتى يومنا الحالي، فإن القول بأن الإيمان المبرِّر "لا يوجد منفردًا في الإنسان المبرَّر، وإنما يصحبه دائمًا جميع النعم الخلاصية الأخرى" قد تُرك دومًا معلقًا دونما دراسة متعمقة حول هذه الحقيقة، وكيف تتحقق في المجال الروحي للمؤمن الحقيقي. مثل هذه الدراسة المتعمقة هي الغرض من هذا الكتاب.

إن هدفي يتمثل في فهم وشرح كيف أن الإيمان المبرِّر يعمل بالمحبة (غل ٥: ٦). وحجتي هي أن السبب في أن الإيمان المبرِّر لا يوجد منفردًا أبدًا هو أن التقديس من طبيعة الإيمان. فهناك شيء ما في جوهر الإيمان المبرِّر يجعل منه أداة للتغيير الأخلاقي، أو لنكون أكثر تحديدًا، هناك شيء ما بشأن الإيمان الذي تقوم من خلاله النعمة الغافرة بالتبرير يجعل منه أداة مناسبة وفعالة لعمل النعمة في التقديس.

التبرير والتقديس أمران متمايزان

لا أعني أبدًا بذلك الخلط بين التبرير والتقديس؛ فهما أمران متمايزان. فالتبرير ليس سلوكًا إنسانيًا للروح أو للجسد، لكن التقديس هو سلوك إنساني (بتأثير إلهي) للروح والجسد. إن الله يقوم بكل التبرير والتقديس، ولكن ليس بنفس الأسلوب. فالتبرير يعتمد على عمل الله الخاص بالدينونة، والتقديس يعتمد على عمل الله في التغيير. ولذا فإن عمل الإيمان مختلف بالنسبة لكليهما. فبالنسبة للتبرير، الإيمان ليس القناة التي تنفذ منها القوة أو التغيير إلى روح المؤمن، لكنه يمثل الحالة الملائمة لغفران الله للإنسان وتبرئته واعتباره من الأبرار. فأعمال الله المبرِّرة في ذاتها لا تلمس روح الإنسان. فهي توصف باللاتينية أنها «*extra nos*» أي خارجة عن ذواتنا. يتحدث بولس عن تبرير «الفاجر» (رو ٤: ٥). لكننا لا نبقي فجارًا، وإنما نبدأ كفجار مبررين. أما بالنسبة للتقديس، فالإيمان دون شك يمثل القناة التي تنفذ منها القوة والتغيير الإلهيان إلى الروح، ومن خلال الإيمان يلمس العمل الإلهي الروح ويغيِّرها.

ثلاثة افتراضات

إن النقطة التي أود إبرازها في هذا الكتاب هي أن الإيمان، الذي هو أداة التبرير، إنما هو نفس الإيمان الذي من خلاله تأتي قوة التقديس للخاطئ المبرَّر. وتبرز هنا ثلاثة افتراضات: الافتراض الأول هو أن الإيمان المبرِّر[٨] يعتبر إيمانًا مثابرًا. وهذا ما أوضحه «چوناثان إدواردز» في لغة دقيقة وغنية: "إن مثابرة الإيمان، في أحد

معانيها، هي شرط التبرير، أي أن شرط القبول مختص فقط بذلك النوع من الإيمان المثابر، والبرهان المناسب على هذه المثابرة الفعلية."[٩] وهكذا فمن المناسب الحديث عن التأثير الأخلاقي للإيمان المبرِّر ليس فقط لأنه يأتي بنا إلى الوضع الصحيح مع الله في لحظة تأثيره الأولى، لكن لأنه يمثل نوعية من الإيمان تتسم بالمثابرة، وبذلك يكمن تأثيره كذلك في قبوله اليومي لكل ما يمثله الله لنا في المسيح.

افتراض ثانٍ هو أن الإيمان المبرِّر لا يمثل الثقة بنعمة الله الماضية فقط، لكنه أيضًا ثقة في نِعمة الله المستقبلية التي تضمنها نعمة الله الماضية بموت المسيح وقيامته. فالإيمان المبرِّر يتضمن عمل المسيح الكفاري الكامل، بمعنى أنه يستند على كل ما تعنيه هذه الكفارة لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. هذا يؤكده إقرار الإيمان السويسري الأول: "الإيمان... يمسك بكل الأمور التي يرجوها المرء من الله." وهذا ما يقوله «چون كالفن» في عظته على رسالة أفسس ٣: ١٤– ١٩: "إذا جئنا للمسيح مؤمنين به، أي إذا قبلنا مواعيد الإنجيل، فدعونا نتيقن من أنه سوف يحل في قلوبنا من خلال الإيمان."[١٠] لذا فاستنادًا على نعمة المسيح الممثلة في موته وقيامته، فإن الإيمان المبرِّر يمثل ثقة في وعود الله الخاصة بالمستقبل.

الافتراض الثالث مؤداه أن جوهر الإيمان المبرِّر هو الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. وكما قال اللاهوتيون الآخرون فإن معنى ذلك هو قبول يسوع في كل وظائفه المنسوبة إليه في كلمة الله. فالإيمان المبرِّر ليس انتقائيًا.. بمعنى أنه يقبل المسيح في واحدة من وظائفه ويرفضه في وظيفة أخرى. "إن الإيمان الحقيقي يقبل المسيح في كل أدواره التي يختصه بها الكتاب المقدس من جهة الخطاة المساكين."[١١] الإيمان المبرر يقبل كل ما يعدنا الله به في المسيح. وهذا القبول ليس مجرد تصديق عقلي على تعليم، لكنه اكتفاء قلبي صادق بشخص الله.

هذه الافتراضات الثلاثة عن طبيعة الإيمان المبرِّر (والتي سوف أحاول التعمق فيها وإثباتها كتابيًا) تشير إلى السبب والكيفية وراء عمل الإيمان بالتقديس. وهذا الكتاب إنما هو تفكير متعمق بشأن الأسانيد الكتابية والآليات الروحية العملية لقوة الإيمان المبرِّر في عمل التقديس. وأنا أدعو هذه الآليات: «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية».

الجزء الأول

عدو الإيمان
في النعمة المستقبلية

«حتى متى لا يصدقونني
بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟»
(عدد ١٤: ١١)

يبتهج الامتنان بالفوائد الإلهية الماضية، ويقول للإيمان:
"اغتنم أكثر من هذه الفوائد للمستقبل حتى يستمر عملي السعيد
في النظر لعمل الله الخلاصي في الماضي."

الفصل الأول

فلسفة المديون: هل ينبغي أن نحاول تسديد الدَّيْن لله؟

ما هو الشعور بالامتنان؟

مثل كل الأمور الثمينة، يتصف الشعور بالامتنان بأنه قابل للتشويه. فمن السهل علينا أن ننسى سبب الشعور بالامتنان أنه في بعض الأحيان تأتينا أشياء مجانًا دون ثمن أو مقابل. وعندما يحدث ذلك، علينا أن نمتلئ بشعور جميل بقيمة ما حصلنا عليه، والرضا الذي شعرنا به بسببه. هذا الشعور الجميل هو ما ندعوه الامتنان. ثم يتبع هذا الشعور الجميل مباشرة التعبير عن الفرح.. فنحن نجد أنفسنا مدفوعين بفرح للإعلان عن الهدية التي حصلنا عليها، والرضا الذي شعرنا به بسببه للتعبير عن تقديرنا للعطية ومشاعر الشخص الذي قدمها.

كلمة «الامتنان» (gratitude) ترتبط بكلمة "نعمة" (*grace*).. وهذا صحيح حتى عندما نمتلئ بالشكر لأمر ما دفعنا أموالاً لنقتنيه. نحن نشعر أن ما اشتريناه قد يكون مخيبًا للآمال رغم امتلاكنا المال الكافي لشرائه. قد يكون هذا الشيء في حالة غير جيدة، أو لا يكون بالضبط ما أردنا شراءه، أو ربما سبقنا أحدهم في شرائه، أو أن تكون عملية الشراء نفسها صعبة، أو يكون التوقيت خاطئًا، أو يكون السعر قد ارتفع قبل شرائنا له مباشرة. بكلمات أخرى، إن الامتنان ليس هو الشعور ببراعتنا في طريقة حصولنا على الأشياء، لكنه الإحساس الذي ينفجر فينا بفرح كرد فعل لشيء نرى فيه نعمة خاصة حتى لو أننا قمنا بشرائه.

موطن فلسفة المديون

لكن عند هذه النقطة يوجد خطر.. فهناك ميل في القلب البشري الساقط، في قلوبنا جميعًا، لنسيان أن الامتنان إنما هو رد فعل تلقائي من الفرح لحصولنا على أمر يفوق ويسمو في قيمته ما دفعناه لاقتنائه. عندما ننسى هذا، فإن ما يحدث هو أننا نبدأ في الإساءة إلى الامتنان وتشويهه بسبب ميلنا إلى تسديد ثمن ما حصلنا عليه مجانًا. هذه اللحظة الحزينة تمثل موطن فلسفة المديون.

تقول فلسفة المديون: "لأنك فعلت أمرًا طيبًا معي، فأنا أشعر بأنني مدين بأن أفعل أمرًا طيبًا لك." لم يكن مقصودًا للامتنان أن يخلق مثل هذا الميل. فقد قصد الله للامتنان أن يكون تعبيرًا تلقائيًا عن الابتهاج بالعطية التي يقدمها الآخر ونيته الحسنة؛ ولم يقصد له أن يتحول إلى رغبة في رد الجميل. فإذا تحوّل الامتنان إلى إحساس بالدين، فإن ذلك يخلق فلسفة المديون.. والنتيجة النهائية هي إبطال النعمة.

أرجو ألا يُساء فهمي. الامتنان في حد ذاته لا يبطل النعمة، وإنما يبتهج بها. لقد خلق الله الشعور بالامتنان ليردد صدى النعمة. بل حتى الفكرة القائلة بأنه يمكن للامتنان أن يخدم الشر تصدم البعض وتزعجهم. لا تسيئوا فهم ذلك، فأنا أمتدح الامتنان كرد فعل كتابي أساسي من القلب تجاه نعمة الله. ويوصي الكتاب المقدس بالامتنان نحو لله كجزء من واجباتنا الأساسية: «ادخلو أبوابه بحمد، دياره بالتسبيح. احمدوه، باركوا اسمه» (مز ١٠٠: ٤). ويقول الله إن شعورنا بالامتنان نحوه يكرِّمه: «ذابح الحمد يمجدني» (مز ٥٠: ٢٣). ورغم كونه عرضة للتشويه من منظور فسلفة المديون، إلا أن الامتنان ليس مذنبًا في ذلك.

نحن جميعًا نعرف ما هي فلسفة المديون، حتى لو لم نطلق عليها هذا الاسم من قبل. تخيل أنك دعوتني مرة لتناول العشاء، سيكون شعوري عندئذ هو الامتنان الشديد نحوك؛ لكن.. كم من السهل علينا تشويه رد الفعل العفوي بالفرح هذا إلى ميل لرد الجميل. فأنت قدمت لي دعوة، وأنا الآن مدين لك بدعوة أخرى. عندما تكون فضيلتنا نحو الناس أو الله منبعها هذا الإحساس بالرغبة في عمل شيء في مقابل شيء آخر، فإننا نكون بذلك قد وقعنا في فخ فلسفة المديون.

ما الخطأ الذي حدث؟ ليس من الخطأ في شيء أن تشعر بالامتنان عندما يقدِّم لنا أحدهم هدية. المشكلة تبدأ عندما يظهر الإلحاح الداخلي بأننا مديونون بهدية في المقابل. ما يفعله هذا الشعور هو أنه يحول الهدايا إلى عملة مشروعة. فالهدية لا تكون هدية فيما بعد بل صفقة تجارية، وما وُهب كهبة مجانية تم إبطاله بالشعور المشوه بالامتنان.

هل علينا أن نرد لله جميله؟

نستطيع أن نلاحظ مدى الانتشار الواسع لفلسفة المديون بين المؤمنين. سمعت مؤخرًا عظة قوية لقائد ومبشر ذائع الصيت عن حاجة الأمريكيين لقبول الدعوة للحياة المكرسة للمسيح، واستخدم الواعظ تشبيهًا مثيرًا حول بذل الذات. غير أن شرحه للتفاعل الروحي للبذل ركز على الامتنان لما فعله المسيح لنا. وظللت منتظرًا أن أسمع كلمة قوية عن الدور الأساسي للرجاء كقوة داعمة لبذل الذات، لكنها لم تأت.

هذا الأسلوب لتحفيز التكريس يبدو غير ضار، بل نبيلاً، كما أنه جذاب. فما يُقال يبدو فوق النقد. على سبيل المثال قد يأتي القول: "لقد فعل الله الكثير من أجلك، والآن ماذا ستفعل أنت من أجله؟" أو "لقد وهبك حياته نفسها، فكم سيكون عليك أن تقدمه له؟"، وهناك الترنيمة الشهيرة لفرانسيس هافيرجالس حيث يقول المسيح فيها: "دمي الثمين قد أرقت من أجلك.. وأنت ماذا يا تُرى فعلت من أجلي؟" لا أقصد بذلك أن مثل هذه العبارات تعبِّر قطعًا عن فلسفة المديون، لكنني أقصد فقط أنها تميل لذلك بسهولة.

في ظل فلسفة المديون تبدو الحياة المسيحية كأنها محاولة لرد الدَّيْن الذي ندين به لله. دائمًا ما يأتي التوكيد بأنه ليس في استطاعتنا أبدًا أن نسدد ما ندين به لله، لكن الامتنان يقتضي بأن نحاول ذلك. وتكون الأعمال الصالحة والممارسات الدينية هي الأقساط التي نقدِّمها لسداد الدَّيْن الذي لا ينتهي لله. فلسفة المديون هذه دائمًا ما تختفي، ربما دون قصد، وراء الكلمات التي تقول: "ينبغي علينا أن نطيع المسيح انطلاقًا من امتناننا له."

هذه الدعوة للامتنان كأسلوب محفز للمؤمنين منتشرة إلى الحد الذي فيه قد يصير الأمر صادقًا عندما أتساءل عما إذا كان لهذه الدعوة سند كتابي قوي. لكن دعونا نفكِّر في ذلك للحظة.. في رأيك ما عدد المواضع الكتابية التي يظهر فيها الامتنان أو الشكر كمحفز للسلوك الأخلاقي؟ وأقصد بذلك سلوكيات مثل معاملة الناس بمحبة، وإنجاز العمل بأمانة، واحتمال المخاطر في العمل الكرازي. هل يخبرنا الكتاب المقدس بأنه يجب القيام بهذه الأمور انطلاقًا من امتناننا أو بقوة الشكر، أو لأننا ندين بالكثير للمسيح؟

هذا الأمر لا يمكن اعتباره تافهًا أو عارضًا، لكنه أمر مذهل. فلو أنك سألت المسيحيين اليوم: "ما هو المحفز الكتابي للطاعة المسيحية؟" فستكون إجابة عدد كبير منهم هي: "الامتنان لله." إلا أن هذا الأسلوب في التفكير غير مألوف تمامًا في الكتاب

المقدس. فنادرًا ما يقول الكتاب المقدس بوضوح إن الامتنان هو الدافع للسلوك الأخلاقي، أو إن عدم الامتنان يعتبر تفسيرًا للانحلال الأخلاقي.

إن مثل هذا الأمر صادم عندما يتسرب إلى قناعتك.. فهذا الاعتقاد السائد بشأن تحفيز حياة الطاعة المسيحية نادرًا ما يُذكر في الكتاب المقدس. هذه الحقيقة بمثابة لكمة في الوجه تجعلك تفقد الوعي للحظات. هل الأمر بالفعل كذلك؟ سيكون عليك البحث بنفسك لتتأكد من ذلك تمامًا.

هل كان عدم الامتنان هو المشكلة؟

كان شعب الله في العهد القديم يخطئون دومًا في حقه رغم كل الأمور الصالحة التي صنعها من أجلهم. لكن السبب وراء هذه الخطية لم يكن عدم امتنانهم، لكن، على سبيل المثال، غياب الإيمان: «حتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟» (عدد ١٤: ١١). لم تكن المشكلة الأخلاقية التي تقض مضجع موسى هي عدم الامتنان، لكن ما كان يزعجه هو أن نعمة الله الماضية لم تحفز الشعب على الثقة في نعمة الله المستقبلية. كان الإيمان بالنعمة المستقبلية، وليس الامتنان، هو القوة الأخلاقية الغائبة اللازمة للتغلب على التمرد وللتحفيز على الطاعة.

بينما قد يقول المؤمن اليوم إن المشكلة تكمن في غياب الشعور بالامتنان، يقول كاتبو الأسفار المقدسة مرة تلو الأخرى إن المشكلة إنما هي غياب الإيمان بنعمة الله المستقبلية. فموسى يوبخ الشعب بقوله: «رأيت كيف حملك الرب إلهك كما يحمل الإنسان ابنه.. ولكن في هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلهكم.» (تث ١: ٣١، ٣٢).

ويسوق المرنم نفس الأسباب وراء خطية الشعب رغم كل البركات التي غمرهم الله بها؛ فرغم أنه «شق صخورًا في البرية، وسقاهم كأنه من لجج عظيمة.. ثم عادوا أيضًا ليخطئوا إليه.. لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتكلوا على خلاصه» (مز ٧٨: ١٥، ١٧، ٢٢).

قد يكون الشعب العاصي قد افتقد بالفعل الشعور بالامتنان، لكن ليس ذلك ما يفسِّر به الكتاب المقدس تمردهم وعصيانهم. والتفسير الذي يقدِّمه الكتاب مرارًا وتكرارًا هو نقص الإيمان بنعمة الله المستقبلية. وبالتالي فالقناة المفقودة للقوة المحفزة بين النعمة الماضية والطاعة المستقبلية ليست هي الامتنان المتجه إلى الماضي، بل الإيمان المتجه إلى المستقبل. وسوف تظل تقرأ العهد القديم دون جدوى في العثور على نصوص تجعل من الامتنان الحافز الواضح لحياة الطاعة أو القوة اللازمة لها.

مخافة الرب والإيمان بالنعمة المستقبلية

هناك محفزات أخرى على الطاعة في العهد القديم، مثل محبة الله ومخافة الرب. سوف نتعامل في الفصول المقبلة مع العلاقة بين الإيمان بالنعمة المستقبلية ومحبة الله.[1] لكننا نجد المجال مناسبًا هنا لنقول شيئًا عن مخافة الله وعلاقتها بالطاعة والإيمان بالنعمة المستقبلية.

علَّم موسى الشعب بأن مخافة الله تثمر طاعة: «تتقي الرب إلهك وتحفظ جميع فرائضه ووصاياه» (تث ٦: ٢)، ولخص سليمان تعليمه في سفر الجامعة بالقول: «فلنسمع ختام الأمر كله: اتَّقِ الله واحفظ وصاياه» (جا ١٢: ١٣)، ويقول نحميا لعظماء أورشليم وولاتها: «أما تسيرون بخوف إلهنا؟» (نح ٥: ٩)، ويقول سفر الأمثال: «كُنْ في مخافة الرب اليوم كله» (أم ٢٣: ١٧). فالسلوك المستقيم والحياة المستقيمة ينبعان من مخافة الرب، لكن بحسب حدود معرفتي، لا توجد تعبيرات مثل هذه تربط الامتنان والطاعة بنفس الأسلوب.

بل وهذه التعبيرات الخاصة بمخافة الرب ربما تكون هي وجه العملة الآخر من الثقة في نعمة الرب المستقبلية.[2] فعبارة «اتَّقِ الله» قد تعني "احذر من الإهانة الكبيرة التي توجهها لله عندما لا تثق في وعوده لك بالقوة والحكمة." ربما لهذا السبب يقول المرنم: «يا متقي الرب، اتكلوا على الرب. هو معينهم ومجنهم» (مز ١١٥: ١١). بمعنى آخر، إذا لم تمتزج المخافة بالثقة في الله فلن تكون مرضية أمامه: «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه» (عب ١١: ٦). فالطاعة التي تنبع من مخافة الرب دون إيمان بنعمته المستقبلية ليست طاعة الحرية بل العبودية.

هذه الترابطية بين المخافة والإيمان تمثل في غالب الأمر السبب في أن الناس إذ رأوا النعمة المعطاة لداود في وقت الأزمة، شعروا بالمخافة والثقة تتولدان جنبًا إلى جنب في قلوبهم: «وجعل في فمي ترنيمة جديدة، تسبيحة لإلهنا. كثيرون يرون ويخافون ويتوكلون على الرب» (مز ٤٠: ٣). حدث نفس الشيء عند البحر الأحمر: «ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب» (خر ١٤: ٣١). فالمخافة والإيمان يحدثان معًا كرد فعل لقوة الله العظيمة ووعده بالنعمة المستقبلية.

إن مخافة الرب هي أن يرتجف الإنسان بسبب إدراكه لمدى الإهانة الموجهة للإله القدوس عندما لا نمتلك إيمانًا بنعمته المستقبلية بعد كل الآيات والعجائب التي صنعها ليحصل على ثقتنا الخاضعة له. إن هذا الإيمان بالنعمة المستقبلية هو الذي يربط قوة

الله بالطاعة. وسنظل نبحث دون جدوى في العهد القديم عن تعليم واضح يشير إلى أن الامتنان هو القناة الموصلة لهذه القوة.

أوفِ نذورك للعلي

ربما يكون الاستثناء الوحيد لهذه الملاحظة في العهد القديم هو التعليم بوجوب إيفاء نذورنا لله. وقد أخذني التفكير في هذا الاستثناء إلى أعماق أكبر بشأن العلاقة بين الامتنان والإيمان بالنعمة المستقبلية.

واحد من أهم النذور التي قطعتها للرب كانت بسبب رهبة مواجهة الجمهور. كنت أدرس في الكلية وتجمدت خوفًا من فكرة الحديث في مواجهة الجمهور.[٣] فقد طلب مني راعي كلية «ويتون» القس «إيڤان ويلش» تقديم صلاة تضرعية قصيرة أثناء فترة تعبدية خلال أحد الفصول الدراسية الصيفية. كان معنى ذلك أن أتحدث على الأقل لمدة ٣٠ ثانية لبعض المئات من الحاضرين. قد يبدو هذا أمرًا بسيطًا لغالبية الناس، لكن بالنسبة لي كانت لحظة فارقة في حياتي. وكانت موافقتي على ذلك ضد كل ميولي الطبيعية. ثم بدأت أصارع مع الله بغية أن يساعدني حتى لا يصيبني الخوف بالشلل فلا أتمكن من الحديث، وهذا ما قد حدث معي مرارًا خلال دراستي الثانوية في كل مرة كان عليَّ تقديم موضوع صغير أمام الآخرين.

عندئذ قطعت نذرًا، وقلت: "يارب إذا ساعدتني في القيام بهذه الصلاة أمام جميع هؤلاء الطلبة والأساتذة، فإنني لن أعتذر عن فرصة للحديث بسبب خوفي." وساعدني الرب، وبحسب ما تسعفني ذاكرتي، فقد حفظت نذري أمام الرب إلى هذا اليوم. لكن هل كنت على صواب حين فعلت ذلك؟ أم أن قطع النذر والوفاء به يمثلان جزءًا من فلسفة المديون؟

إن النذور هي وعود يقطعها المرء لله، وغالبًا ما تكون في أوقات الأزمات. على سبيل المثال قال أبشالوم لداود: «لأن عبدك نذر نذرًا عند سُكناي في جَشور في أرام قائلاً: إن أرجعني الرب إلى أورشليم فإني أعبد الرب» (٢صم ١٥: ٨). فالرب ليس ضد نذر النذور،[٤] بل في واقع الأمر يبدو أن حزقيا قد واجه نقدًا لأنه لم يقطع نذرًا: «في تلك الأيام مرض حزقيا إلى حد الموت وصلى إلى الرب فكلمه وأعطاه علامة. ولكن لم يَرُد حزقيا حسبما أُنعم عليه لأن قلبه ارتفع، فكان غضبٌ عليه وعلى يهوذا وأورشليم» (٢أخ ٣٢: ٢٤، ٢٥). يبدو أن حزقيا كان عليه أن يقطع نذرًا بأن يخدم الرب وأن يوفي هذا النذر. بالإضافة إلى ذلك، فإن الله يقدِّم تعليمات للوفاء بالنذر:

«إذا نذرت نذرًا للرب إلهك، فلا تؤخر وفاءه، لأن الرب إلهك يطلبه منك فتكون عليك خطية» (تث ٢٣: ٢١).

في بعض الأحيان ارتبط إيفاء النذر بالامتنان. فعلى سبيل المثال نقرأ في مزمور ٥٠: ١٤: «اذبح لله حمدًا، وأوفِ العليّ نذورك». ربما كانت النذور في هذا السياق خاصة بتقديم ذبائح الشكر. ويبدو أن هذا هو القصد في قول المرنم أيضًا: «أدخل إلى بيتك بمحرقات، أوفيك نذوري التي نطقت بها شفتاي، وتكلم بها فمي في ضيقي» (مز ٦٦: ١٣، ١٤). فعندما اجتاز المرنم الضيق نذر بأن يقدِّم محرقات للرب. لذا فذبيحة الشكر هي وفاء النذر.

ربما كانت هناك أمور أخرى ينذرها الناس من حين إلى آخر بجانب الطقوس التعبدية مثل ذبيحة المحرقة. لذا فمن العدل القول بأن بعض التعهدات الأخلاقية تجد المحفز لها في الرغبة في أن يرد المرء لله بعض الخير بسبب العون الذي قدمه له في وقت الضيق. لا يقول العهد القديم صراحة إن هذا السلوك ينبع من الشعور بالامتنان، أو حتى إنه يعبِّر عن الامتنان؛ لكن العلاقة واضحة جدًا. فكيف لنا أن نفهم هذه الصلة وعلاقتها بالإيمان بالنعمة المستقبلية؟ ولماذا لا يعتبر إيفاء النذر لله نموذجًا لفلسفة المديون؟

هل إيفاء النذر نموذج لفلسفة المديون؟

إن ما يحفظ إيفاء النذور من أخطار فلسفة المديون هو أن هذا الإيفاء في حقيقته ليس إيفاءً طبيعيًا، لكنه قبول آخر لنعمة الله المتفاضلة؛ وهو لا يعظم سعة حيلتنا. ويمكننا أن نرى ذلك في مزمورين: أولاً في مزمور ١١٦: ١٢– ١٤ حيث يقول المرنم: «ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟ كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعو. أوفي نذوري للرب». إن إجابة المرنم على سؤاله: "ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟" هي أنه سوف يستمر في الأخذ من الرب لكيما يتعظم صلاح الرب اللانهائي. أولاً: أخذ كأس الخلاص يعني قبول خلاص الله المشبع والتلذذ منه وانتظار المزيد. لهذا أقول إن رد الجميل لله في هذه السياقات ليس إيفاءً عاديًا، لكنه قبول عطية الله من جديد.

ثانيًا: هذا هو معنى العبارة التالية أيضًا: «باسم الرب أدعو.» ماذا أرد للرب من أجل إجابته لدعواي؟ الإجابة هي: أن أدعو مرة أخرى. سوف أقدِّم لله السبح والإكرام إذ أنه، رغم عدم احتياجه لي، فإنه يغمرني بالإحسانات عندما أحتاج إليه (وهذا هو

حالي دائمًا). ثم يقول المرنم في العبارة الثالثة: «أوفي نذوري للرب.» لكن كيف سيتم إيفاؤها؟ بأن أرفع كأس الخلاص وأدعو باسم الرب.. أي أن إيفاءها سوف يتم بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

الإيمان بالنعمة المستقبلية يحمي الامتنان من فلسفة المديون

الإيمان بالنعمة المستقبلية هو السر الذي يحفظ دوافع الامتنان من التحول إلى فلسفة المديون. إن الامتنان الحقيقي يفرح بكل غنى نعمة الله، وهو ينظر إلى كل الإحسانات التي تمتع بها قبلاً. وإذ يبتهج بالنعمة الماضية، فهو يدفع القلب للثقة في النعمة المستقبلية. يمكننا القول إن الامتنان يشتهي كثيرًا متعة النظر إلى نعمة الله الماضية. حيث أن الله قد جعل تدفقه المستقبل يجري من خلال الإيمان، لذا فالامتنان يرسل دوافع فرحه في الإيمان بالنعمة المستقبلية. هذا الأمر تعبِّر عنه عبارة: «كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعو.» فالامتنان يبتهج ببركات الله ويقول للإيمان: «تناول أكثر من هذه الإحسانات من أجل المستقبل، حتى يستمر عملي السعيد بالنظر إلى خلاص الله في الماضي».

نفس الفكرة موجودة في مزمور ٥٠؛ فالله يحذِّر من طريقة خاطئة لرد الجميل عندما يقول في عددي ١٢ و١٣: «إن جُعت فلا أقول لك، لأن لي المسكونة وملأها. هل آكل لحم الثيران، أو أشرب دم التيوس؟» وهذا يعني بكلمات أخرى: "لا تنظر إلى ما تقدمه لي كأمر طبيعي يسدد احتياجي أو يضيف لي أي شيء. فأنا بالفعل أمتلك ما تريد تقديمه لي."

ماذا إذًا؟ يجيب المزمور: «اذبح لله حمدًا، وأوف العلي نذورك. وادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني» (مز ٥٠: ١٤، ١٥).. هنا أيضًا طريق إيفاء النذور إنما هو دعوة الرب في يوم الضيق لكي يقوم بالإنقاذ ليأخذ المجد. هذا يوضح أن إيفاء النذور في العهد القديم ليس جزءًا من فلسفة المديون؛ إنما هو عمل الإيمان بالنعمة المستقبلية.. أوفِ نذورك، بمعنى أن تدعوني في يوم الضيق فأنقذك بالنعمة المستقبلية، وعندئذ تمجدني.

خلاصة القول، نستطيع القول إن الامتنان الحقيقي لا يؤدي إلى فلسفة المديون؛ لأنه يؤدي إلى الإيمان بالنعمة المستقبلية. ومع الامتنان الحقيقي هناك فرح حقيقي بنعمة الله الثمينة في الماضي مما يدفعنا لأن نختبر الكثير والكثير منها في المستقبل. لكن هذا لا يحدث من خلال رد الديون بالمعنى المتعارف عليه. بل يحدث بالحري من

خلال تحويل الامتنان إلى إيمان إذ إنه يتحول من التأمل في غنى الماضي إلى انتظار لوعود المستقبل.

إذا كان هذا هو التوجه الذي يشير إليه العهد القديم، فماذا عن العهد الجديد؟ ما هو التوجه الفكري الذي يقودنا إليه العهد الجديد بشأن فسلفة المديون؟ هذا ما سوف نراه في الفصل الثاني.